

مجلة أنثروبولوجية الأويان العدد 16 العدد 01 بتاريخ 15 جانفي 2020م

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

إفريقيا الغربية جنوب الصحراء وتحولاتها الحضارية ما بين القرنين 13 و16 م بين التواصل والتميز

**Civilised movements in the Southern sahara of western Africa during
13-16 century : between continuity and uniqueness.**

رضوان هواري¹ ، الدكتور :عمر سي عبد القادر

Houari Redouane, Omar Si Abdelkader

جامعة قسنطينة -3- صالح بونبندر

¹ Université Salah Boubnider constantine 3

redouane.houari@univ-constantine3.dz

جامعة أبو بكر بلقايد -تلمسان

Université Abou Bekr Belkaid Tlemcen

si62sh@yahoo.com

تاريخ القبول: 2019/07/27م

تاريخ الارسال: 2019/07/04م

ملخص:

يعتبر تاريخ غرب إفريقيا جنوب الصحراء أحد أهم الحلقات المثيرة للجدل في تاريخ إفريقيا، وذلك من خلال ما رسمته الكتابات التاريخية العربية والغربية عن هذه المنطقة وخصوصا في الفترة الانتقالية بين العصر الوسيط والحديث. فمن الواضح أنها فترة مفصلية لتاريخ المنطقة وحقبة جديرة بالدراسة، لأنها عرفت تحولا مس جميع المجالات متأثرة بالتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي عرفت المناطق التي كانت تربطها بها علاقات وطيدة، وفي ظل التواصل الموجود بينها وبين باقي الأقطار الإسلامية تحولت هذه البلاد

¹ المؤلف المرسل: رضوان هواري ، الايميل: redouane.houari@univ-constantine3.dz

خلال ثلاث قرون لتدخل الفترة الحديثة بوجه مختلف تماما على ما كانت عليه مستفيدة من الازدهار الحضاري الذي عرفته في السابق وصناعة لكيان متميز .
كلمات مفتاحية: غرب إفريقيا جنوب الصحراء ، الهجرات ، الإسلام ، التجارة ، التواصل .

Abstract :The history of southern sahara of western Africa is considered as an interesting area in the history of Africa, this is clear enough through what was written about the region in the historical peaces in both Arabic and western languages especially during the transitional period which is obviously a distinctive time for the region, thus, it has seen an important political, social, and economic development within a strong union with the different Islamic parts during the three centuries. Lastly, all these factors have led To a crucial development incivilisation.

Keywords: southern sahara of western Africa, Islam, communication, trade, immigration.

مقدمة:

عرفت منطقة غرب إفريقيا خلال العصر الوسيط عدة تطورات شملت كل المجالات، فرسمت بذلك معالم جديدة للمنطقة مستمدة من التواصل الحاصل بين أقطار العالم الإسلامي آنذاك ، وبين نبوغ أهلها وتميزهم في شتى المجالات . بغض النظر على الدراسات السابقة التي أرجعت هذا التغير إلى عوامل أهمها البعد الديني وتأثيره البالغ على البنية السوسيو اقتصادية لهذه المنطقة في العصر الوسيط ، حاولنا أن نبحث في العوامل التي أدت إلى تطور هذه المنطقة خلال نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث فبلورنا إشكاليتنا كالتالي : ما هي العوامل التي ساهمت في تحول بلاد السودان الغربي؟ و ما هو تأثيرها على الهيكل الاجتماعي والاقتصادي لهذه المنطقة في العصر الوسيط؟ ومن خلال ذلك نطرح بعض الأسئلة الإشكالية التي تحدد بدقة محور الإشكالية وهي على النحو التالي :

- هل الإنسان المحلي كان قادرا على إحداث هذه المتغيرات لوحده ؟ أم تفاعله مع باقي المناطق هو الذي أدى إلى هذه الثورة الاجتماعية والاقتصادية ؟

- كيف ساهمت المتغيرات الاقتصادية والسياسية في هذا التطور الحاصل في بلاد السودان الغربي ؟

هل كان هذا التطور ايجابيا أم سلبي على المنطقة ؟

أولا- المؤثرات السوسولوجية:

1 - أثر الهجرات البشرية :

لقد كان لتواجد الهجرات البشرية المختلفة التي عرفت منطقة غرب إفريقيا جنوب الصحراء عدة أسباب مثل (الفرار من القتل ، أو التجارة ، أو الدعوة) ، دور في تحول النسق الاجتماعي لهذه البلاد لأنها أثرت هذه البلاد في مختلف المجالات وعلى جميع الأصعدة (رزوق محمد 1987 ، ع 31 ، ص 111 .) ، وكان لعامل الاستقرار وتقبل أهل البلاد لمختلف العناصر الوافدة دور في ظهور أجيال جديدة نقلت البلاد إلى مرحلة حضارية جديدة (خيرى، د.ت، ص39). وهذا ما أدى إلى وجود تأثير وتأثر بين أهل البلاد والعناصر الوافدة إلى هذه البلاد (المقريري د.ت، ص196)

لقد وصلت إلى بلاد غرب إفريقيا جنوب الصحراء والتي عرفت (ببلاد السودان الغربي) جماعات من قيس عيلان (ابن حزم، د.ت، ص243). وقد نقل هؤلاء العرب العديد من صور الحضارة العربية إلى تلك الأصقاع و أخذوا عنهم الكثير من طبائع معاشهم كإنشاء المساكن وما تعلق بالعمران بشكل عام . ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما ذكرته المصادر عن براعة المهندس والشاعر أبو إسحاق الساحلي و مدى التحول الذي أحدثه في هندسة عمران هذه البلاد إبداع طريقة جديدة تتناسب مع طبيعة هذه البلاد الحارة و مازالت إلى يومنا هذا بعض معالم عمران الساحلي في هذه البلاد بداية من 723هـ / 1323 م حيث عمل على بناء العديد من القصور والمساجد انطلاقا من مدينة جني ، فأثقفها وبرع في صنعها وهو أول من أدخل البناء بالطوب المحروق الذي لم يكن معروفا في بلاد السودان الغربي ومما قاله عنه ابن خلدون " أراد سلطان مالي أن يتخذ بيتا في قاعدة سلطانه مدينة جني محكم البناء ، مجللا ، لغرابته بأرضهم ، فأطرفه

أبو إسحاق ببناء قبة مربعة الشكل، استفرغ فيها إجادته. وكان صناع اليدين، وأضفى عليه من الكلس ووالى عليها من الأصباغ المشبعة، فجاءت من أتقن المباني، ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم، وصله باثني عشر ألفا من مثاقيل دنانير التبر ماثوثة عليها، إلى ما كان من الأثرة والميل إليه، والصلات السنينة " وذكر ابن بطوطة أن سلطان مالي أجزل بالعطاء على الساحلي جزاء تفننه في البناء (ابن خلدون عبد الرحمن 1976، ص310-311). وقد واصلت الهجرات الإسلامية إلى هذه البلاد و خاصة من بلاد المغرب فاندمجوا مع السكان المحليين وتزاوجوا معهم، وأصبحت مدن السودان الغربي عامرة بهم وبعاداتهم وتقاليدهم بصفة خاصة والعرب بصفة عامة (زكرياء، 1975، ص155). وقد اهتم الرحالة الغربيون منذ بداية اكتشافهم للصحراء و إفريقيا الغربية بتسجيل ظاهرة الوجود العربي والعنصر المغاربي في هذه البلاد فأوردوا ذلك في كتاباتهم لهذه البلاد في القرن الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، التاسع والعاشر للهجرة. ومما يجدر ذكره تلك الهجرة المعاكسة التي كانت من بلاد السودان الغربي نحو بلاد المشرق الإسلامي ومصر على الخصوص حيث خصص رواق خاص للسودان في الجامع الأزهر بالإضافة إلى وجود حي خاص بأهالي بلاد التكرور في مدينة القاهرة عرف بحي التكروري (ابن ثغري بردي د.ت، ص289). ومن خلل ذلك نلاحظ مدى التواصل و التلاقح بين العرب المسلمين في أقطار العالم الإسلامي من جهة وبين أهل السودان الغربي . وكيف كانت هذه العوامل أحد الأسباب المهمة لإحداث التغيير في هذه البلاد على المستوى الاجتماعي و الاقتصادي .

2- الاختلاط بين الأجناس المهاجرة :

لقد جاء التأكيد على عدم التفريق بين الأمم والشعوب امثالا لقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات، الآية 13). فلم يكن لون بشرة الزوج سببا في تعصب باقي المسلمين عليه فتقارب المسلمون وتزاوجوا فيما بينهم وهذا ما لم يقدم عليه النصارى أو اليهود مما جعل أهل هذه البلاد يقبلون على الدين الإسلامي ، وأصبح لتلك المصاهرة دور مهم في إعادة بناء المجتمع السوداني على أسس جديدة توجهها تعاليم الإسلام . فتصاهر العديد من المهاجرين من سكان شمال الصحراء فذابت ملامحهم واختفت فوارق اللون والجنس ، وقد أشارت المصادر العربية عن تزويج ملك سنغاي بناته لتاجرين وفدا إلى هذه البلاد (الوزان، 1983، ص111

(.وقد تزوج الكثير من تجار البربر والعرب من نساء سودانيات ، وأصبح من الصعب التعرف على الأصول إلا من خلال الذين حافظوا عليها جيلا بعد جيل . وقد ذكر ابن الخطيب أن أبناء الشاعر والمهندس الأندلسي إبراهيم الساحلي من إمامة الإفريقيات كانوا شديدي السواد (ابن الخطيب، 1974، ص348). كما ذكر المقرئ في هذا الشأن أن آل المقرئ الذين اشتهروا بتجارهم نحو بلاد السودان ، أنهم قد تزوجوا من السودانيات بقوله : " فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط و الديار ، و تزوجوا النساء، و استو لدوا الإماء " (المقرئ، 1986، ص608). أما ابن خلدون فقد ذكر مثالا آخر عن المصاهرة والجيل المولد بالحديث عن أبو محمد بن كيداد حيث كان والده تاجرا من منطقة الجريد وتزوج من جارية سوداء من تادمكة فأصبح يعرف بالحبشي للون بشرته (ابن خلدون عبد الرحمن، 1976، ص310-311).

ظهر نتيجة المصاهرة جيل جديد من المولدين ينتسبون إلى العرب لأن أجدادهم العرب تزوجوا من سودانيات ومنهم حكام مالي الذين ادعوا نسبهم إلى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وكان نفس الشأن للعديد من الأسر السودانية التي ادعت النسب الشريف وخاصة بعد قدوم العديد من الأسر الشريفة مع السلطان منسا موسى بعد حجه سنة 724هـ/1324م (كعت 1913). كما أدت الهجرات العربية من الشمال الإفريقي وعلى الخصوص من المغرب واستقرارهم جنوب الصحراء ، إلى الانصهار في المجتمع السوداني مما أدى إلى شغلهم للعديد من المناصب الكبيرة في بلاط ملوك هذه البلاد كالقضاء و الإفتاء وإمامة المساجد والتدريس بها وكذا التجارة، حيث برزت عدة أسر نذكر منها : بيت الفلالي، و الدكالي، والسجلماسي ، و التازي، و التوتي ، الجزولي، فكانت إيذا لبروز مجتمع سوداني جديد بملامح وتقاليده عربية بربرية إسلامية. لقد كان وصول التجار والفقهاء إلى هذه المنطقة سببا في التفاعل مع السكان الأصليين ، ومع الاستقرار والمصاهرة تقبل السكان عادات الوافدين وأصبحت جزءا من حياتهم المعيشية (Trimingham, 1976 p107).

لقد نتج عن هذا التصاهر انتشار اللغة العربية فأصبحت بذلك أحد أهم الوسائل لحفظ تراث هذه البلاد ونشر الدين الإسلامي في مجاهل القارة الإفريقية وكانت سلوكياتهم دافعا لاعتناق شعوب هذه البلاد للدين الإسلامي، وازداد التزام المجتمع الأخلاقي وساد التسامح و إقامة الحدود بين الناس والعمل بتعاليم الدين الإسلامي ، مما انعكس على المستوى الحضاري لبلاد السودان الغربي في هذه الحقبة الزمنية ، والتي كانت من أزهى فترات هذه البلاد بعلمائها وأعلامها في شتى العلوم والفنون (قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا، د.ت، ص9)، ولعل

القرنين الخامس والسادس الهجريين يمثلان قمة الازدهار العلمي والثقافي في هذه البلاد ، وهذا ما يفسر ثراء المكتبات بالمؤلفات سواء المحلية أو المستقدمة من المشرق والمغرب الإسلاميين (ع، شوقي . ع ، عبد الله، 1996 ص118) .

3- الرحلات الحجازية:

لا يوجد شك حول أهمية الدور الذي لعبته قوافل الحج والتجارة في ازدهار ممالك غرب إفريقيا جنوب الصحراء وهذا ما سمح بتحول حياة البدو من نمط البداوة المتحلة دوما إلى الاستقرار الدائم و الاستفادة من وجود سلطة مركزية تحفظ الأمن لطريق الحجيج ، وقد مكنت قوافل الحج من صهر الزنوج والبربر في الحضارة الإسلامية وهو ما تشهد عليه العديد من المخطوطات الموجودة في غرب إفريقيا ، وقد لعبت هذه القوافل دورا مهما في تعمير حواضر السودان الغربي ، وجعلها منارات للعلم والعلماء وذلك بتوظيف الفائض التجاري ، لتأدية هذا الفرض المقدس عند المسلمين، وأصبحت بذلك القوافل مرتبطة ارتباط وثيق بركب الحجيج ، حيث أصبح أحد الوسائل المهمة للاتصال بالمشرق العربي خاصة من خلال حمل المسائل الفقهية ، والنوازل ، و كل ما يتعلق بالحياة في هذه البلاد . وكثيرا ما ارتبط اسم مؤسس الدولة بهذه الشعيرة بحيث تضي عليه مكانة اجتماعية وسياسية وفي نفس الوقت الدينية ، فليس ثمة شك في ارتباط التأسيس الثاني لهذه الحواضر بالحج . حيث في الغالب ما يتم التأسيس عند عودة الحاج ، وأغلب المدن الكبرى التي أسست أصبحت محطات لقوافل التجارة والحج معا وبالمقابل تراجعت مكانة المدن القديمة الرابطة بين المغرب و المناطق الواقعة جنوب الصحراء ، وقد شكلت ولادة أحد هذه النماذج لتوسطها بلاد المغرب وممالك غرب إفريقيا حيث ازدادت شهرتها لكونها مركز جذب للتجار العرب والبربر والزنوج من جهة ومن جهة أخرى كونها أصبحت من المحطات الرئيسية لقوافل الحج ، وخصوصا بعد أن ابتداء منها منسى موسى و إسكيا محمد رحلتيهما إلى الحج ، وهذا ما جعلها تكون ملاذا آمنا للعلماء الفارين من بطش وتعسف حكام تمبكتو ، كما أن مواعيد الحج التكرورية لعبت دورا كبيرا في انتعاش التجارة مع مصر ، حتى أن جاليات كبيرة من أهل التكرور استقرت في مصر وسكن منها في القرافة ثلاثة آلاف شخص (التكروري ، بن عرفة، 1314 هـ، ص118) . وقد لعبت رحلة الحج دروا كبيرا في تعزيز وتوطيد العلاقات والصلات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وحتى الثقافية بين مصر وشعوب السودان الغربي ، كانت رحلة منسا موسى للحج من أهم الرحلات التي قدمت من بلاد السودان الغربي لما كان لها من

انعكاسات على مختلف الجوانب (يونس، 1994، ص 88). وعلى رأسها الاجتماعي والثقافي والديني وحتى السياسي .

لقد اكتسب أهل إفريقيا جنوب الصحراء من خلال رحلاتهم ومشاهداتهم للعديد من حواضر العالم الإسلامي آنذاك الكثير من عادات وتقاليد هذه المدن وفي بعض الأحيان فاقوا من سبقهم في الإسلام في مدى التزامهم بحدود الشرع الإسلامي من أوامر و نواه . وقد سجل لنا العمري حادثة وقعت للسلطان منسى موسى في رحلته الشهيرة للحج (ابن كثير ، 1977، ص 112). وعند لقائه للسلطان المملوكي في مصر في كونه رفض تقبيل الأرض بين يدي السلطان والسجود له، وأجابه بأن السجود لا يكون إلا لله وحده (العمري 1988، ص 72). ومن انعكاسات تلك الرحلة على السودان الغربي هي مسارعة منسى موسى لإقامة المساجد والمدارس لتحفيظ القرآن والحرص على جلب العلماء والفقهاء و إكثار العطاء لهم ، حتى اشتهر بأنه يحب البيضان ويحسن إليهم ، كما قال ذلك ابن بطوطة في معرض حديثه عن هذا السلطان . كما أنه عمل على اقتناء الكتب من بلاد المشرق حتى امتلأت بها مكتبات مدن السودان الغربي كجني و تمبوكتو وولاتة. (السعدي عبد الرحمن، 1898، ص 21). ولقد ظل الحج من المؤثرات الهامة لنقل العادات والتقاليد من مناطق العالم الإسلامي التي تعبرها قوافل الحجيج إلى بلاد غرب إفريقيا جنوب الصحراء .

لقد مكنت قوافل الحج من تأسيس علاقات متنوعة وعلى جميع الأصعدة بين مصر ومكة وباقي ممالك غرب إفريقيا جنوب الصحراء ،أما مصر فلم تكن مجرد محطة عبور بل تعدت ذلك ،لأنه كان يتوجب على موكب الحج السوداني البقاء فيها والانتظار حتى موعد رحيل الموكب المصري وخلال هذه الفترة كان يتجه الكثير من أهل السودان إلى تلقي العلوم ومختلف الآداب، بحيث كانت مواكب الحجيج تتزايد حتى وصلت إلى خمسة آلاف حاج أو يزيد عن ذلك حسب ما ذكرته المصادر (ابن الوردي، 1970، ص 392) والذي يفيدنا من هذا التعداد هو أن ندرك كبر حجم الوافدين على بلاد المشرق من أجل القيام بهذه الشعيرة والفرض ومدى تعلقهم بالإسلام وتأدية أركانه كما كانت أحد أهم الوسائل التي أثرت في المجتمع السوداني وفي نمط حياته السياسية و الاقتصادية والثقافية .

ثانيا- العوامل السياسية :

1- النشاط الدبلوماسي:

لعب القرب الجغرافي والعلاقات التجارية القديمة بين ممالك غرب إفريقيا جنوب الصحراء ، وباقي دول بلاد المغرب الإسلامي خاصة في التأثير على الواقع الاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي على دول ضفتي الصحراء ، وحتى وإن كان طابع العلاقات طغى عليه الطابع التجاري ، إلا أننا نجد من خلال ما ذكرته بعض المصادر للمراسلات التي كانت تتم بين حكام دول بلاد المغرب وممالك غرب إفريقيا جنوب الصحراء . فقد كانت هذه المراسلات أو السفارات أحد العوامل المؤثرة في بلاد السودان الغربي ، فنجد أن هذه المراسلات والسفارات قد لعبت دورا مهما في القرن الثامن الهجري ، الرابع عشر ميلادي ، وكانت أهم السفارات التي حدثت بين ممالك غرب إفريقيا جنوب الصحراء وبلاد المغرب الإسلامي هي تلك التي تمت بين منسا موسى سنة 737هـ/1337 م والسلطان المريني بالمغرب أبي الحسن المريني (الزركلي ، خير الدين ، 1969) ، ومن نتائج هذه السفارة هو توطيد العلاقات بين الطرفين ، حيث أرسل منسا موسى العديد من البعثات إلى مدينة فاس على نفقة الدولة وكل الطلبة الذين يتعلمون في المغرب يحضون بمناصب مهمة في حواضر بلاد السودان الغربي ، كتمبوكتو ، وجني ، وغاو ، ونياني (زكي ، عبد الرحمن ، 1961 ، ص 97) ، فمنهم الإمام والقاضي والمعلم ، كما أخذت مراحل التعليم في دولة مالي الإسلامية تتشابه مع ما كان معروفا في الدولة المرينية .

وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته إلى بلاد السودان الغربي ، عددا كبيرا من العلماء المغاربة الذين انتشروا في ربوع هذه البلاد (ابن بطوطة ، الصفحات 377-380) ، فظهر من خلال هذا التواجد الكبير للعلماء والفقهاء وغيرهم من بلاد المغرب أثر جلي في تحول جوانب كبيرة لبلاد السودان الغربي .

لقد اكتسب العلماء مكانة كبيرة في الدول الإسلامية جنوب الصحراء ، حيث كان أثرهم بارزا في الحياة السودانية وهذا ما خول لهم الحصول على مناصب عليا في معظم الممالك التي قامت هناك ، ومن ثم كان يستحيل تسيير الإدارة دون تأييدهم (مادهوبانيكار ، ك ، 1995 ، ص 424) . وقد توالى السفارات بين المنطقتين وخاصة في ظل الحكم المالي وحكام دولة مالي ، حيث ذكر ابن خلدون أن السلطان المريني أبي الحسن قد أوفد سفارته بعد سنة 738-742 هـ / 1337-1341 م وهذا بعد حكم منسا موسى وتسلم منسا سليمان للحكم في مالي وفي عهد منسا سليمان أرسلت سفارة جديدة سنة 748 هـ / 1348 م إلى بلاد المغرب لتهنئة السلطان المريني أبي الحسن ، ولكن ها تعرضت للنهب والسلب وفي سنة 762 هـ / 1360 علقت سفارة من بلاد مالي في مدينة ولاته وبقيت هناك حتى سنة 776 هـ / 1374 م ، وقد حظيت باهتمام السلطان

أبي سالم المريني (ابن الاحمر، 1972، 56) وجموع المرافقين له وخاصة لما شاهدوا الزرافة ، وقد وصف ابن خلدون وقوفهم عند الاستقبال بالزحام (ابن خلدون عبد الرحمن 1976، ص310-311).

وفي ختام هذه السفارات رحلة ابن بطوطة إلى دولة مالي سنة 753هـ/1352م بأمر من السلطان أبي عنان المريني (ابن الاحمر، 1972، 51)، والتي قدمت لنا الكثير من المعلومات عن منطقة السودان الغربي، ونقل لنا ابن بطوطة طريقة الاحتفال بعيد الفطر والضحي إحياء ليلة القدر من شهر رمضان الفضيل ، حيث تدخل المدينة في جو إيماني وتلاوة القرآن الكريم وقراءة كتب المالكية وكتب الحديث وهذه الاحتفالات كانت معروفة في بلاد المغرب عامة ، كما ذكر لنا مدى تعلق الناس بالدين وبقراءة القرآن وكل ذلك كان أحد أهم مظاهر التحول في المجتمع السوداني الذي رسخت فيه مبادئ وتعاليم الإسلام ، وكذا عادات وتقاليد المجتمعات الإسلامية المجاورة له ، بحكم التلاقح الذي حدث بين ضفتي الصحراء الكبرى وحتى مع بلاد المشرق والحجاز . وفي نفس الصدد كانت هناك سفارات بين سلاطين كانم والدولة الحفصية حيث وصف لنا ابن خلدون السفارة التي أرسلها السلطان دونمة ديبالملي حاكم دولة كانم (1221-1259 م) (بدوي، عبده، 1970، ص172 .)، في سنة 655هـ/1257 م إلى السلطان الحفصي أبي عبد الله المستنصر (الذهبي، 1987، ص136 .).

وكانت هذه السفارة محملة بمهدايا ثمينة جدا كما ذكرها ابن خلدون (ابن خلدون عبد الرحمن، ج 6 ص199) ، وقد لعبت دورا هاما في نقل مؤثرات الدين الإسلامي ومد وتوغل العرب المسلمين إلى أعماق القارة كما أرسل الماي عبد الله بن كادي حاكم دولة كانم ما بين (1321-1342 م) (عارف، 1996، ص77 .) إلى السلطان الحفصي المتوكل (الزركلي، خير الدين، 1969، ص126) سنة 728هـ/1327 م وفدا مكونا من العديد من المقربين منه قصد توطيد العلاقات بينهما .

من خلال المراسلات التي كانت بين حكام الدولتين ، ذكر القلقشندي رسالة للسلطان عثمان بن زينب (كادي) حكم ما بين 1279-1300م/676-700 هـ (المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، 1958، ص899) بعثها للسلطان المملوكي برقوق (الزركلي، خير الدين، ص18)، سنة 794هـ/1391 م ، عبرت هذه الرسالة عن مدى الاحترام والمحبة التي يكنها هذا السلطان لمصر من خلال الأوصاف التي وصفها بها في الرسالة (القلقشندي ، 1987) .

من خلال هذه المراسلات والسفارات توطدت العلاقات بين ضفتي الصحراء ، بالرغم من أنها كانت قليلة إلا أن الدور الذي لعبته كان كبير في معانيه وقيمه وتأثيراته على المجتمع السوداني، من خلال ما اكتسبته

الوفود التي زارت البلاد الإسلامية من عادات وخبرات ،دفعت بالعجلة الحضارية في هذه البلاد ، وجعلت منها قطبا حضاريا إسلاميا يضاهي باقي الأقطار الإسلامية .

2- الطبقة الحاكمة :

عمل حكام الممالك الإسلامية بغرب إفريقيا جنوب الصحراء بتشجيع العلماء للتوافد على هذه البلاد من المشرق و المغرب الإسلاميين ، وذلك بالكثرة العطايا والهدايا وحتى الاقتطاعات قصد تشجيعهم على الإقامة في هذه البلاد .والهدف من ذلك هو تثقيف الناس و توعيتهم وخلع ما بقي من آثار الوثنية بهذه المجتمعات ، حتى غصت المدن الكبرى في السودان الغربي بالعلماء والمدرسين من خارج بلاد السودان الغرب ، وقد ذكر لنا ابن بطوطة وهو مقيم بمالي أنه لجأ لطبيب مصري ليداويه من مرض ألم به هناك من جراء تناوله لأحد النباتات ، كما أنه ذكر في كثير من المرات الحي الذي يسكنه البيض ،أي من هم غير أهل السودان (ابن بطوطة، صفحة 372). وعند الحديث عن ملوك السودان فلا يخفى على أحد ما قام به منسا موسى من جهود في سبيل نقل العلماء والعلوم إلى بلاد السودان الغربي وكذا توطيد العلاقات بين بلاده وباقي بلاد الإسلام وخاصة بلاد الحجاز ومصر ،أثناء رحلته الشهيرة إلى الحج

كما اشتهر اسقيا محمد سلطان مالي (1493-1528 م) بتشجيعه للعلماء وإكثار العطاء لهم ، فعمرت بهم حواضر السودان الغربي كجني و غاو و تمبوكتو ، وهذا ما انعكس بالإيجاب على هذه البلاد وكان سببا في قيام نهضة ثقافية فيها خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر للميلاد . وقد عرف الأسقيا محمد كذلك برحلته إلى الحج والتي أخذ فيها جمع كبير من العلماء والعبيد والدواب، وأنفق هو الآخر نفقات كبيرة في هذه الرحلة زادت بكثير عن نفقات منسى موسى التي أجهزت العلم آنذاك (زيادية د.ت .). وقد اتصل بمحمد بن عبد الكريم المغيلي الذي كان قصد بلاد السودان الغربي قادما من بلاد توات فعين كمستشار للأسقيا وممثلا له في منطقة غاو ، حيث ألف له كتاب في الإدارة الإسلامية سماه " أجوبة وأسئلة أسكيا " بناء على طلب الملك ، كما أنه اجتمع بسلطان كانو ، فكتب له رسالة في أمور السلطة ينصحه فيها بإتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما علمهم الشرع وقواعده (ابن مريم، 1908، ص130 .)، ومن خلال ذلك نلمس حرص ملوك السودان الغربي على العمل بتعاليم الإسلام و إشاعة العدل بين الرعية عن طريق الإصلاحات التي باسروها في إعطاء صورة جديدة لمجتمع سوداني ، قائمة على تعاليم الدين الحنيف . وذلك بتنظيم الدولة وهذا ما أدى إلى القضاء على الكثير من الآثار الوثنية والعادات والتقاليد التي عاشتها المجتمعات الأفريقية ،

وكانت في نفس الوقت إعلانا لتطور حضاري للمنطقة برمتها في جميع الميادين السياسية ، و الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية و حين تولى خلفاء الأسقيا محمد عن ما أقامه بدأت الدولة تضمحل و تسير من ضعف إلى ضعف (زبادية د.ت.).

3 - التحولات السياسية :

عرفت منطقة غرب إفريقيا جنوب الصحراء العديد من الأحداث والتطورات على المستوى السياسي، جعلت الأوضاع تتغير تدريجيا بداية من القرن الثالث عشر ميلادي، السابع الهجري وإلى غاية القرن السادس عشر ميلادي، العاشر الهجري حيث أثرت جملة الأحداث التي مرت بها على الواقع الاجتماعي والاقتصادي بشكل كبير. فقد انتقلت سلطة البلاد إلى العديد من الشعوب والسلالات انطلاقا من الماندينغو (هوارى)، 2013، ص 25). في عهد دولة مالي في بداية القرن الثالث عشر للميلاد حوالي 1225م ، إلى غاية منتصف القرن الخامس عشر حوالي 1455 م حيث عرف أمراء الماندينغو بلقب منسا وكان أشهرهم منسا موسى الذي سبق وأن أشرنا إليه وعن رحلته الشهيرة إلى الحج ، وكان من أهم ما عرفته بلاد السودان الغربي في عهدهم هو نبذ الصراعات والحروب القبلية التي كانت كثيرا ما تقوم بين قبائل المنطقة وذلك عن طريق عقد المصاهرات مع زعماء القبائل في إمبراطوريتهم وهذا ما جعلها تنقاد إليهم (CORNEVIN, R, 1962, p250)، أما في المجال الاقتصادي فقد عرفت البلاد تنظيما اقتصاديا كبيرا من خلال تشجيع زراعة بعض المحاصيل كالقطن (CORNEVIN, R, p251) ، كما قاموا بتنظيم الجباية على الواردات والصادرات بشكل أكثر إحكام على ما كان معمولا به في عهد مملكة غانة ، وهذا ما أغدق الأموال على مملكة مالي ، ومن جانب آخر أكثر أهمية هو استتباب الأمن ، وخاصة على طرق القوافل لأنها مصدر مهم من مصادر دخل الدولة، فقد تحكمت بشكل كبير في طرق القوافل الرئيسية و هذا ما انعكس بالإيجاب على البلاد برمتها .

تطورت الحياة بشكل كبير في بلاد السودان الغربي على عهد دولة مالي واتضح ذلك في الجوانب الحضارية بشكل عام فازدهرت مدنها وحواضرها بشكل ملحوظ من خلال عدد والوافدين عليها كذلك وحتى طابع الأبنية التي تطورت هي الأخرى وخاصة في مدينة تمبوكتو (باري، م، و كردية، س ، 2007، ص 99)، وما اكتمل البناء فيها بالالتصاق إلا في القرن العاشر الهجري ، السادس عشر للميلاد (السعدي عبد الرحمن، ص 21-22) ، حيث وصل تعداد سكانها حوالي 100.000 نسمة ربعهم كان من العلماء الذين تخرجوا من مصر والحجاز (باري، م، و كردية، س ، 2007، ص 99). وقد عرفت دولة مالي في القرن الثامن الهجري، الرابع عشر

الميلادي رخاء اقتصاديا كبيرا حتى سمي هذا العصر بالعصر الذهبي لدولة مالي وخاصة تمبكتو ، التي ازدهرت بها الحياة الاقتصادية و العلمية على حد سواء، وكان من جملة العوامل المساعدة على ذلك توفر الأمن والنظام في المدينة بشكل خاص ، مما ساهم في تنشيط الحركة الاقتصادية بها و أتاها التجار من كل المناطق فازدادت قوتها سنة بعد أخرى .

لقد حاول خلفاء منسا موسى التوجه نحو المحيط الأطلسي (العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 2001، ص121)، كما عملوا على الاتصال بالبرتغاليين والايطاليين وهذا ما زاد في أطماع هذه الدول في الحصول على موارد دولة مالي مع نهاية القرن السادس عشر الميلادي في إطار الحملة الاستعمارية الشرسة ، التي شنتها الدول الغربية تحت غطاء ما أسمته باستكشاف القارة الإفريقية .

دخلت دولة مالي في طور الضعف في منتصف القرن الخامس عشر ميلادي واستمرت الاضطرابات تعصف بها بسبب تنافس أفراد الأسرة الحاكمة ، وهذا ما قطع أوصالها لتتحول إلى مملكة صغيرة بين الممالك الحديثة الظهور. (MONTEIL, 1968,p143)

مع حلول القرن السادس عشر أصبحت دولة سنغاي قوة سياسية في بلاد السودان الغربي، وهي من سيقود المنطقة لفترة لا تقل أهمية عما عرفته دولة مالي .وقد عرفت دولة سنغاي أوج عظمتها في عهد الأسقيا الحاج محمد الكبير ورغم أن أسر الأسقيا لم تحكم سنغاي أكثر من قرن واحد ، إلا أنها استطاعت أن تمد حدود الدولة إلى أقصى اتساع لها بحيث لم تصله أي دولة قبلها ولا بعدها في تاريخ السودان الغربي .والذي يجب ذكره على أيام الأساق في دولة سنغاي ، هو ذلك التنظيم المنقطع النظير على جميع الأصعدة وخاصة على عهد الأسقيا محمد الكبير لأنه حرص على تقوية دولته داخليا ليستطيع الوقوف أمام خصومه من جهة ، ويكسب الرعية من جهة أخرى كما شهد عهده (1493-1528 م) ، أزهى فترات دولة سنغاي وذلك بإشاعة العدل بين مناطق البلاد وشعوبها وبذلك ضمت إلى البلاد عدة أراضي جديدة في الشمال ، وعلى سواحل الأطلسي وحتى بلاد الهوسا (فيج ج يدي 1982 ،ص72). ومن هذا ما أدى إلى انتقال الكثير من العلماء إلى شرق مملكة سنغاي ، فأقاموا هناك يفقهون الناس في الدين وينشرون الثقافة الإسلامية ، فكانوا نواة لنهضة ثقافية شملت البلاد في القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي ، كما كان للمشاريع التي أقامها أثر كبير في رخاء البلاد ، كحفر القنوات على شواطئ النيجر لزيادة الأراضي المزروعة وأوجد الأوزان والمكاييل الموحدة ، مما جذب إليها الكثير من تجار طرابلس وفاس وتلمسان .

شهدت مملكة سنغاي عدة تحولات على جميع المستويات بعد تنازل الأسقيا محمد لابنه موسى على السلطة سنة 1528م ، فكانت بداية الانحيار بعد أن دب الصراع في البلاط بين الأشقاء على الحكم ، فانعكس ذلك على الأوضاع السياسية والاقتصادية بشكل عام . كل هذه الأحداث أدت بأمرء المقاطعات والقبائل إلى التمرد (الدالي 1999 ، ص 269)، واستمرت الأوضاع في سنغاي على حالها إلى غاية الملك إسحاق الثاني (1588-1591م) و الذي ستعرض فيه البلاد للعديد من الحملات من قبل أحمد المنصور السعدي لعدة اعتبارات كان أهمها :

- اعتبار بلاد السودان منفذا عسكريا و اقتصاديا للمغرب إلى الجنوب ، وهذا بعد الضغط الذي نتج عن التحولات العسكرية والسياسية التي عرفت المناطق الشمالية مما أدى إلى سقوط بلاد الأندلس في يد النصارى الأسباب و توالي اعتداءاتهم على سواحل شمال إفريقيا تحت ما أسموه بحروب الاسترداد ، وظهور العثمانيين على الحدود الشرقية للمغرب . كل ذلك جعل من المغرب جسرا ملائما بالنسبة للأوروبيين قصد العبور إلى غرب إفريقيا خاصة في ظل الأطماع المتنامية للبرتغاليين الذين شرعوا في بسط تواجدهم على السواحل الغربية الأطلسية جنوب المغرب (قدوري ، ع، 2012 ، ص 49 .)، فكان توجه السعديين نحو الجنوب هو إجراء وقائي لمنع تطويقهم من الجنوب .ومن العوامل الأخرى كان يريد التحكم في موارد وثروات بلاد السودان الغربي لنفسه وهذا ما سترجمه الممارسات التي قام بها جيشه عند دخوله إلى هذه البلاد من خلال الضرائب التي فرضت على الأهالي والذي دعمت خزينة السعديين بأموال طائلة سنويا (اليفرني ، 1988، ص 95 .).

إن المتتبع للتحولات التي عرفت بلاد السودان الغربي خلال القرن السادس عشر ميلادي العاشر الهجري ، يتوصل إلى أنها أثرت على المستوى الديموغرافي للبلاد فقد أثرت بوضوح على عدد السكان بشكل ايجابي، حيث توافد عدد كبير من التجار والعلماء على بلاد السودان الغربي خاصة في عهد الأسقيا محمد والفترة القصيرة التي تلت حكمه فارتفع عدد السكان وكبرت المدن وتطور العمران ، وانتعشت الأنشطة الاقتصادية بها . ومن جهة أخرى كان لهذه التحولات أثرا سلبيا من خلال حدوث نزيف ديموغرافي منذ أواخر القرن السادس عشر ، نتيجة تطاحن أفراد الأسرة الحاكمة وكثرة الحروب التي قامت بين الأمراء وحكام الأقاليم ، كما كان للحملات السعدية على بلاد السودان الغربي أثر كبير كذلك من خلا عدد الضحايا الذين سقطوا فيها من أهل السودان نتيجة التفوق المادي الممثل في الأسلحة التي استعملها المغاربة ضد السودانيين الذين ظلوا يحاربون بأسلحة بدائية ، وهذا ما مكن المغاربة من التوغل في بلاد السودان الغربي والسيطرة على أهم حواضرها حين من الدهر . فأصبحت

بعض المدن خاوية على عروشها كنتغازا بعد أن خرج منها سكانها إثر دخول الجيش المغربي إليها سنة 1586 م ، ومدن أخرى أبيد أهلها وأسر علمائها كتمبوكتو سنة 1591م من قبل الجيش السعودي . لقد كان لهذه الأحداث عدة نتائج كما ذكرنا ولعل أهمها هو تراجع الوزن الحضاري لبلاد السودان الغربي وخاصة التجارة التي عرفت تراجع كبير نتيجة انعدام عامل الأمن وكذا تحول الطرق التجارية نحو السواحل الأطلسية .

لقد وجد أهل السودان الغربي أنفسهم مجبرين على العيش تحت الحكم المغربي ، الذي كانت أحكامه العسكرية قاسية من جهة ولكنه كان مجبرا على ترك بعض الأعراف على ما هي عليه ، لأنه لم يكن بالإمكان تخليصه منها دفعة واحدة ، وكان

للوجود المغربي الذي تمركز في الحواضر الكبرى لبلاد السودان الغربي أثر سلبي حيث انتشرت المجاعات والأوبئة التي قضت على خلق كبير ، وسرعان ما اختلط العنصر المغربي من الجند الذي كان متواجدا بهذه البلاد بالعنصر الأصلي أما العادات فقد دخلت عليها العادات المغربية في اللباس والاحتفالات الدينية وغيرها من المظاهر التي طغى عليها الطابع المغربي وشكل العامة من المغاربة ، وأهل البلاد الأصليين ثلث الطبقة الاجتماعية في السودان الغربي وكان البقية من العبيد و الأقنان من السودانيين الذين مثلوا الخدم عند أغنياء المغاربة (سلطان، عبلة محمد، 1989، ص195).

أصبح الاقتصاد المغربي اقتصادا موجهها ومسخرها لحاجيات المغرب ، حيث نمت الزراعة والصنائع جراء تركيز جالية مغربية كبيرة ببلاد السودان الغربي حتى أنها عرفت أنماط ومحاصيل زراعية جديدة ، جراء ما جاء به الفلاحون من أهل الأندلس واليهود من تقنيات فلاحية لم يعتدها أهل هذه البلاد .

لقد ساهمت التحولات السياسية التي عرفتتها منطقة السودان الغربي سواء داخليا أو خارجيا في التأثير بشكل كبير على الخصوصيات الاجتماعية والاقتصادية لهذه المنطقة، فكان فيها الايجابي والسلبي ولكن المتغيرات الدولية التي أحاطت بالمنطقة في أواخر القرن السادس عشر ميلادي العاشر هجري جعل المنطقة تنهوى حضارتها بسبب من ادعوا الحضارة آنذاك .

ثالثا- العوامل الاقتصادية :

1- التجارة مفتاح غرب إفريقيا جنوب الصحراء :

لعبت التجارة والتجار دورا مهما في بلاد السودان الغربي لما لها من تأثير مباشر على البنية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فقد ساهمت التجارة ومنذ القدم في ازدهار العديد من الحضارات ، وهذا ما حققته

التجارة في بلاد السودان بشكل عام والسودان الغربي بشكل خاص وهذا منذ القدم (جواد، 1969، ص285). فكان لاستقرار التجار العرب المسلمين في هذه المناطق واختلاطهم مع الأفارقة دور في تعليم سكانها التجارة وفق الشريعة الإسلامية ، وربط المنطقة بالعالم الإسلامي بشكل كبير فتوافد الكثير من التجار العراقيين إلى سجلماسة كمقدمة للتوغل في بلاد السودان الغربي ونقلوا بذلك إلى سكان البلاد الأخلاق الحسنة وهذا ما ذكره ابن حوقل في قوله : " أنهم حسني الأعمال ولهم كمال في الأخلاق ، وصدق في معاملاتهم ... " (ابن حوقل، 1992، ص99)، وما ذكرته المصادر كذلك في هذا الشأن هو أن العديد من التجار العرب المستقرين في أودغست اشتغلوا كوكلاء تجاريين بين شمال الصحراء وجنوبها ، كما أنهم استخدموا بعض الأساليب التجارية لم تكن معروفة في بلاد السودان الغربي ، كاستخدامهم للصكوك التجارية (ابن حوقل، صفحة 65) وهذا دليل واضح على مدى التأثير الذي نقله التجار العرب إلى هذه المنطقة ، كما أن المصادر ذكرت مدى الاحترام الذي لقيه التجار من قبل حكام وملوك بلاد السودان الغربي . ومع حلول القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي أصبحت فوائد التجارة في هذه المناطق تعم جميع الفئات ، بعدما كانت مستغلة من قبل الملوك فيما مضى (قداح، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام 1960، ص101). ومع بداية حكم الأسفيين في دولة سنغاي في القرن السادس عشر ميلادي العاشر الهجري كان التجار في هذه البلاد منقسمين لقسمين : أما القسم الأول فكان يتمتع بثراء ، وجاه كبير مما جعله يرقى لمصاف الملوك والحكام ، وكان غالبيتهم من التجار العرب والمغاربة ، حيث لقيت هذه الفئة عناية فائقة من طرف الأساقي (كعت، 57) وكان لهذه الفئة دور كبير في تطور المجتمع السوداني على جميع الأصعدة كالتعليم وتوضيح الشريعة الإسلامية ، والاستشارة في الحكم والقضاء، قيادتهم للصفقات التجارية المعقدة حتى أن بعضهم كان يطلب منه الفتوى.(الشيخلي، 1984، ص42). لقد عملت هذه الفئة من التجار الوافدين على بلاد السودان الغربي أو بالأحرى الأجانب ، إلى ظهور العديد من المنتجات والمواد التي يؤتى بها من الخارج ولم تكن موجودة بهذه البلاد مما أدى إلى رواجها وتضاعف أثمانها بالمقابل وهو الشيء الذي أدى إلى حصول نقلة كبيرة في التاريخ الحضاري للمنطقة بشكل عام ، ومن هذه البضائع نذكر تجارة الكتب على سبيل المثال لا الحصر ، والتي كان لها دور كبير كذلك في ازدهار العديد من حواضر بلاد السودان كمدينتي تمبكتو وجني اللتين أصبحتا مدينتي العلم والعلماء .

عرفت بلاد السودان الغربي إلى جانب ذلك العديد من البيوع والمعاملات المستوحاة من الشريعة الإسلامية مثل القراض في التجارة والوكلاء التجاريين ، حيث بدأت هذه المعاملات تشكل جزء من العلاقات التجارية

الموجودة بين التجار المحليين والأجانب (الدالي 1999، ص269)، و قد استحدثت مهن أخرى ترتبط بالتجارة وهي الدليل أو كما ذكره ابن بطوطة التكشيف قبل دخوله إلى مدينة ولاته وفي الأغلب كان من أهل مسوفة المغربية وذلك لكثرة تنقلهم ومعرفتهم بدروب الصحراء التي تربط بين الشمال والجنوب (ابن بطوطة، صفحة 368) .

لقد نشأت فئة أخرى من التجار إلى جانب التجار الأجانب هي فئة التجار المحليين والذين كانوا أقل ثراء من التجار الأجانب نتيجة قلة أرباحهم ومحدودية سلعهم ولم ترتقي هذه الفئة إلى تقلد مناصب عليا إلا أن الجدير بالذكر أنهم أصبحوا أكثر اقتداءا بالتجار في المشرق العربي وفي بلاد المغرب على حد سواء، وذلك من خلال توجيههم إلى التخصص في المجال التجاري، كالحبوب واللحوم وما شابه ذلك . فقد ساهم التجار في بلاد السودان الغربي في التأثير على المجتمع والاقتصاد السوداني بما يلي :

- بتنشيط التجارة الداخلية
- تغذية الجبايات الحكومية وما ينتج عنه من ثراء البلاد .
- المساهمة في توفير الشغل .
- تغيير النمط الاستهلاكي في الغذاء واللباس خاصة عند الموسرين من الرعية (زبادية د.ت ، ص218).
- لقد امتد تأثير التجار بشكل كبير في معاملات الأسواق حتى أنهم أدخلوا الكثير من الأسماء العربية على المقاييس والموازين فاستخدموها وفق ما كان متعاملا به في باقي البلاد الإسلامية كالذراع والشبر، والمد ، والصاع وتعاملوا كذلك بالدينار والدرهم والمثقال والأوقية المصنوعة من مختلف المواد ، كما تم تعيين مراقبين لهذه الموازين والمقاييس كما كان الشأن في باقي البلاد الإسلامية (سينيكي ،مودي سيسيكو 1988) .
- لعب التجار دروا بارزا ومهما في إخراج بلاد السودان الغربي من الوثنية البدائية إلى الحضارة ومجارات باقي الأقطار الإسلامية في الكثير من المظاهر الحضارية .

2- تجارة العبيد وتأثيراتها :

ازدهرت أسواق النخاسة خلال القرنين الخامس والسادس عشر ميلادي حيث تزايد عدد العبيد من مختلف الأعمار وكانت أثمانهم منخفضة كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك، باعتبارهم وسيلة للمبادلات كالودع والملح والذهب فكان انخفاض أثمانهم سببا في إقبال التجار على أخذ الكثير منهم إلى بلدانهم، مما يدر عليهم الكثير من الأموال سواء في أسواق بلاد المغرب أو مصر وحتى إلى التجار الأوروبيين الذين ينقلونهم إلى أسواق أوروبا .

لقد ساهم الرقيق بنوع من التأثير في المجتمع السوداني، خاصة بعد أن أخذوا عادات وطبائع المناطق التي أخذوا إليها والتي كانت إسلامية في الغالب، ولكونهم اندمجوا في تلك المجتمعات التي عاشوا فيها فقد نقلوا إلى أهاليهم تفاصيل ما عاشوه بعد تحررهم وعتقهم لوجه الله تعالى، أو تكفيرا عن الأخطاء التي يتوجب فيها شرعا عتق رقبة (سحنون 1323 هـ، ص 22). ورجوعهم إلى بلدانهم، فزرعوا بذلك القيم والعادات التي لمسوها في المناطق التي كانوا فيها قبل عتقهم. كما لعب التواجد الكبير للعبيد في قصور الحكام والملوك دورا كبيرا في نقل عادات سادتهم في مختلف المناسبات (السائح 1975، ص 167). وحتى فيما يتعلق بالحروب نقل العبيد المعتوقون إلى بلدانهم كيفية معاملة الأبرياء كما استخدموا أساليب تعلموها أثناء مشاركتهم في جيوش المسلمين، وقد عملوا على نقل أوضاع المسلمين الاجتماعية من خلال تصرفاتهم اتجاه الرعية ومن الأمثلة التي نسوقها في هذا الشأن هو جلوس ساكورة (الفلقشندي، 1987، ص 294) على حكم مالي والتزامه بعناية شؤون رعيته وفق الشريعة الإسلامية حيث ذهب في رحلة الحج سنة 700هـ/1300م وخلال ذلك زار مصر، وقد حكم دولة مالي صندكي (الفلقشندي، 1987، ص 297) الذي هو في الأصل من الرقيق. وقد طبق هذا الأخير كل ما تعلمه خلال فترة استرقاقه في حكمه، والأمثلة كثيرة إذا تحدثنا عن الرقيق ودورهم في قيام الدول الإسلامية فلا يخفى (العمرى، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 1988، ص 72) على أي دارس الدور الذي لعبه الماليك (ابن منظور 1997، ص 493). في إرساء دعائم الملك وإقامة دولة قوية لا تزال العديد من معالمها قائمة إلى يومنا هذا خاصة في مصر عاصمة ملكهم.

كما ساهم الرقيق بشكل كبير في تطوير و إنعاش الجانب الاقتصادي في غرب إفريقيا وخاصة في الزراعة المنتشرة على ضفاف أنهارها (المغربي 1970، ص 24)، وقد ذكر كعت طريقة تقسيم الرقيق في الحقول أثناء موسم حصاد الرز في دولة مالي (كعت 1913، ص 94)، كما قام الأسقيا الحاج محمد قرية زراعية كبيرة يعمل فيها الرقيق (سينيكي، مودي سيسيكو 1988، ص 207).

لقد تعددت الأعمال التي قام بها الرقيق في غرب إفريقيا جنوب الصحراء كاستخراج التبر وسبك النحاس واستخراج الملح وغيرها من الأعمال التي أشارت إليها المصادر (الشنقيطي 1989، ص 494)، وحتى الإمام كان لهن الدور الكبير في اقتصاد هذه البلاد فقد شاركن في الحياة العامة وقد ذكرت المصادر ذلك كاشتجار إماء أودغست بصناعة الحلويات وبيع بعضهن في الأسواق (البكري ص 158).

3- الحرفين والصناع وتأثيراتهم :

إن بساطة المجتمعات الإفريقية جعلت معرفتها بالحرف والصنائع قليلة، ولكن نسجها وربطها لعلاقات وطيدة مع العديد من أقطار العالم وخاصة الإسلامي منها جعلتها تنقل ثقافات هذه الشعوب إليها، وبحكم الاختلاط الذي عرفته بلاد السودان الغربي وعملية التلاقح الذي حصل مع باقي الشعوب. دخلت على هذه البلاد العديد من الصنائع والحرف قلما كانت توجد فيها قبل القرن الثالث عشر ميلادي /السابع الهجري، فظهرت الحياكة والصناعة الخياطة ودباغة الجلود وتصنيعها كملابس، وكان من بين الصناعات التي ازدهرت صناعة دبغ الجلود والتي اعتمدت بدرجة كبيرة على الصباغة المجلوبة من المغرب، ومن غدامس حيث نشطت الصباغة في العهد المغربي في السودان الغربي، وحتى أواخر القرن العاشر الهجري /السادس عشر ميلادي، وبهذا كانت الجلود المصبوغة هي أكثر ما يلبسه أهل السودان الغربي في فصل الشتاء (الغربي، 1982، ص500). وبالرغم من وجود العديد من الصناعات الحديدية والنحاسية عند أهل هذه البلاد إلا أنها لم تستطع الاستغناء على الصناعات التي كانت تجلب من المغرب خاصة بحكم أن بلاد السودان الغربي أصبحت تحت حكم المغاربة منذ عهد المنصور كما سبق وأن أشرنا. (الغربي، صفحة 491).

عرفت الزراعة كذلك قفزة كبيرة من خلال الخبرة الأندلسية التي جاءت مع الجيوش المغربية وأصبحت المزارع السودانية شبيهة بالبساتين الأندلسية، من خلال الاستغلال الأمثل للتربة والمساحات الزراعية، خاصة على سفوح الجبال بإنشاء المساطب والقنوات، وعلموا أهل البادية أشياء جديدة لم يعهدوها، كما أن أهل الأندلس الذين وفدوا مع المغاربة كانوا على دراية بالفيضانات وبخواص الطمي حيث عملوا على المراقبة المستمرة لمنسوب النهر وكذا رصد أوقات الفيضانات مما جعلهم يبنون محطات لقياس منسوب مياه النهر، وهذا ما أشار إليه السعدي (السعدي عبد الرحمن، 278-292) فكثرت الصنائع وعمت الخيرات في البلاد (المقري، 764). ونلمس مدى التقنيات التي أدخلت من طرف المغاربة في مجال الري كشق القنوات وتحويل روافد نهر النيجر (رزوق 1987، ص98) وزراعة الأصناف التي لم تكن موجودة في بلاد السودان وأدخلوا البيطرة وهذا قصد الاعتناء بالثروة الحيوانية (Dupuis-yakouba, 1921,p183-185).

لقد ساهم أصحاب الحرف والصنائع في تنمية وتطوير الاقتصاد السوداني والذي كان معظمهم وافد من المغرب لأنه كان بوابة السودان الغربي من الشمال، فظهرت صناعات تحويلية وكمالية على حد سواء لم تكن معروفة في بلاد السودان الغربي، وكان للصناع المغاربة المهرة الذين وفدوا على بلاد السودان الغربي أثناء الحملة السعدية أو قبلها دور في خلق صناعات جديدة وتطوير البدائية منها، كما نقلوا البذور والمزروعات الجديدة

لهذه البلاد كالعديد من أنواع الحوامض والبطيخ الأحمر والقمح الصلب والتبغ وقصب السكر ، وتنظيم الزراعة وفق ما يعرف بالدورة الزراعية باختيار التربة الصالحة لكل نوع من النباتات (رزوق، العلاقات العربية الافريقية في القرن السادس عشر 1987، ص111) .

تغيرت البنية الاقتصادية و الاجتماعية في غرب إفريقيا جنوب الصحراء خلال القرن السادس عشر ميلادي / العاشر الهجري نتيجة العوامل التي اشرنا إليها فكان منها ، ما أفاد البلاد وجعلها ترتقي في سلم الحضارة وتضاهي بذلك باقي المناطق في العالم الإسلامي ، أو العالم الغربي من خلال حجم المبادلات التجارية في مختلف السلع التي كانت تصدر وتستورد من هذه المناطق ، أما الجانب السلبي في هذا التحول جعل البلاد محط أنظار العديد من القوى العالمية وخاصة الأوروبية التي كانت في هذه الفترة تعيش فترة الانقلاب الصناعي، وما صاحبها من ظهور للفكر الاستعماري الحديث والذي ستكون القارة الإفريقية أكبر ضحاياه مستخدمة قناع الكشف الجغرافية و التجارة للتوغل في القارة بداية من السواحل الأطلسية الغربية .

خاتمة:

- عرفت بلاد غرب إفريقيا جنوب الصحراء العديد من التحولات الاقتصادية و الاجتماعية بداية من القرن السابع الهجري / الثالث عشر ميلادي وإلى غاية نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر ميلادي وهي إعلان عن نهاية العصر الوسيط ودخول البلاد الإسلامية برمتها في تغير جذري كانت له عدة تبعات على العالم الإسلامي في ظل تغير موازين القوى العالمية . وأهم هذه التحولات التي مست هذه البلاد خلال هذه الفترة :
- توغل الإسلام في المجتمعات الإفريقية وتأثرها به بشكل كبير .
 - ظهور الكيان السوسيو اقتصادي لغرب إفريقيا جنوب الصحراء في هذه الفترة .
 - ازدياد قنوات التواصل مع باقي أقطار العالم ، وخاصة العالم الإسلامي .
 - تحسن المستوى المعيشي .
 - تطور النمو الديمغرافي .
 - تطور النسق العمراني وتنوع مواد البناء .
 - اختفاء العادات القديمة وخاصة الوثنية .
 - اهتمام الأنثولوجيون بالثقافة الإفريقية وخاصة جنوب الصحراء .

- بداية اندماج اقتصاد غرب إفريقيا جنوب الصحراء في الاقتصاد العالمي وخاصة بعد التحول الذي حصل في المسالك التجارية أو ما عرف بالتجارة الصحراوية .
- انعكاس هذا التطور على الجانب الثقافي حيث تطورت البلاد وتحلى ذلك في الحركة العلمية التي مست البلاد وظهور العديد من العلماء والمؤلفات .
- التطور الاقتصادي لغرب إفريقيا جنوب الصحراء كان نقمة عليها وجعلها مطمعا للأجانب .

الاقتراحات :

أخيرا نرى بأن دراسة الإرث الحضاري لبلاد السودان الغربي مازال يكتنفه الكثير من الإجحاف ،لأن الدراسات الحديثة مازالت لم تتطرق لجوانب عديدة في تاريخ هذه المنطقة ولهذا ،وبما أن مدن إفريقيا جنوب الصحراء مازالت تزخر بالعديد من المخطوطات التي يطالها النسيان فلا بد للدارسين أن يستنتقوا هذه الكنوز للكشف عن الحضارة العربية الإسلامية في هذه المناطق وذلك بالتعاون مع محابر البحث الموجودة في هذه الدول .

قائمة المراجع:

1. ابن الأحمر إسماعيل بن يوسف ،النفحة النصرية واللمحة المربنية، تحقيق :عدنان م، المترجمون، مطبعة الشام، دمشق، سوريا ،1972 .
2. ابن الخطيب لسان الدين،الإحاطة في أخبار غرناطة ،مج2، الخانجي،القاهرة ، مصر، 1974 .
3. ابن الوردي زين الدين عمر بن المظفر،تممة المختصر في أخبار البشر، ج2، دار المعرفة للطباعة،بيروت،لبنان، 1970.

مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 16 العدد 01 بتاريخ 15 جانفي 2020م

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

4. ابن بطوطة محمد بن عبد الله اللواتي، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج2، دار الفكر، بيروت ، 2009 .
5. ابن ثغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج14، وزارة الثقافة، القاهرة، مصر، د.ت.
6. ابن حزم أبو مُحَمَّد عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدٍ، جمهرة أنساب العرب، دار المعارف ، القاهرة، مصر، د.ت.
7. ابن حوقل أبي القاسم النصيبي، صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1992 .
8. ابن خلدون عبد الرحمن، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج6، دار العلم، بيروت، لبنان، 1976 .
9. ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1970 .
10. ابن كثير إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، ج14 ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1977 .
11. ابن مريم المليتي المديوني البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان، مراجعة : محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908 .
12. ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، ج10، دار صادر، بيروت، لبنان ، 1997 .
13. أبو عبيد الله، البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، مصر.
14. باري محمد فاضل علي ، و كريدية سعيد ابراهيم، المسلمون في غرب افريقيا تاريخ وحضارة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007 .

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد 16 العدد 01 بتاريخ 15 جانفي 2020م

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

15. بدوي عبده، مع حركة الإسلام في إفريقيا، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة، مصر، 1970 .
16. التكروري بن عرفة، العرف المشهور في حجاج بلاد التكروري، الخانجي، القاهرة، مصر، 1314 هـ.
17. جمال زكرياء قاسم، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، مصر، 1975 .
18. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت ، لبنان، 1969 .
19. الحسن السائح، الحضارة المغربية عبر التاريخ، ج 1 ، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1975 .
20. حسن الوزان، وصف إفريقيا، ج2، دار الغرب، بيروت، لبنان، 1983 .
21. خيرى عيسى محمود، العلاقات العربية الإفريقية، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، مصر.
22. الدالي الهادي المبروك، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، ط 1 ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، 1999 .
23. الذهبي محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ج2، دار الفكر، بيروت ، لبنان، 1987 .
24. رضوان هواري " بيوتات العلماء في السودان الغربي من خلال كتاب نيل الإبتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي"، رسالة ماجستير في التاريخ، جامعة تلمسان، الجزائر، 2013 .
25. الزركلي خير الدين، الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج2، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1969 .

مجلة أنثروبولوجية الأديان العدد 16 العدد 01 بتاريخ 15 جانفي 2020م

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

- 26 . زكي عبدالرحمن، تاريخ الدولة الإسلامية السودانية، المؤسسة العربية الحديثة، القاهرة، مصر، 1961 .
- 27 . سحنون ابن سعيد، المدونة الكبرى، تحقيق: سيد حماد الفيومي وآخرون، ج 1، مطبعة السعادة، القاهرة، مصر، 1323هـ.
- 28 . السعدي عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر، تاريخ السودان ، بردين انجي، باريس، فرنسا، 1898 .
- 29 . سورة الحجرات، (الآية 13).
- 30 . سينيكي مودي سيسيكو، "الصنغي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر"، بحث منشور في كتاب تاريخ إفريقيا العام ، (مج4)، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، لبنان، 1988 .
- 31 . الشنقيطي أحمد بن الأمين، الوسيط في تراجم أدياء شنقيط ، تحقيق :فؤاد السيد، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، 1989 .
- 32 . الشيخلي صباح ابراهيم، "النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري"، بحث منشور في كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، جامعة الدول العربية اتحاد المؤرخين العرب ، بغداد، العراق، 1984 .
- 33 . عبد القادر زبادية ، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، ش و ن ت، الجزائر، 1974 .
- 34 . عبلة سلطان محمد، "العناصر المغربية في السودان الغربي" ، رسالة دكتوراه، معهد البحوث والدراسات الإفريقية ، جامعة القاهرة، مصر ، 1989 .
- 35 . عطاءالله الجمل شوقي، عبد الرزاق ابراهيم عبد الله . تاريخ المسلمين في افريقيا ومشكلاتهم، دار الثقافة للنشر، القاهرة، مصر، 1996 .

مجلة أنثروبولوجية (الأويان) المجلد 16 العدد 01 بتاريخ 15 جانفي 2020م

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

- 36 . علي جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ، 1969 .
- 37 . العمري شهاب الدين بن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، مج 4، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ، 2001 .
- 38 . فوزية يونس فتاح، التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية على السودان الغربي، كلية الآداب ، جامعة الموصل، العراق، 1994 .
- 39 . فيج ج يدي، تاريخ غرب إفريقيا، ط1، دار المعارف، القاهرة، مصر ، 1982 .
- 40 . قداح نعيم، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا، ش.و.ن.إ، الجزائر، (د.ت).،
- 41 . قداح نعيم، أفريقيا الغربية في ظل الإسلام ، (مراجعة عمر الحكيم، المترجمون) ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1960 .
- 42 . قدوري عبد الرحمن، " الوجود المغربي بمنطقة السودان الغربي في القرنين 9 و10 هـ/15 و16 م"، رسالة ماجستير في التاريخ ، جامعة تلمسان، الجزائر، 2012 .
- 43 . الفلقشندي أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج5، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ت).
- 44 . كعت محمود، تاريخ الفتاش في ذكر الملوك وأخبار الجيوش وأكابر الناس، بردين، باريس، 1913 .
- 45 . مادوهوبانيكار.ك، الوثنية والإسلام ، تر :أحمد فؤاد بليغ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1995 .
- 46 . محمد الغربي، بداية الحكم المغربي، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت ، 1982 .

مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 16 العدد 01 بتاريخ 15 جانفي 2020م

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

47. محمد رزوق ، " العلاقات العربية الإفريقية في القرن السادس عشر " ، مجلة المؤرخ العربي، القاهرة، ع 31، 1987، ص111 .
48. محمد شوكت عارف، " دولة كانم الإسلامية، دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية من القرن 8-11هـ/11-14 م " رسالة ماجستير ، جامعة الموصل، العراق، 1996 .
49. المقري أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس ، ج5، دار صادر ، بيروت، لبنان ، 1986 .
50. المقرئ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي ، السلوك لمعرفة دول الملوك، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1958 .
51. المقرئ تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر ، (د.ت).
52. البفري محمد الصغير، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، مكتبة الطالب، الرباط، المغرب، 1988م.

المراجع الأجنبية :

53. CORNEVIN R, Histoire del' Afrique, T1 ,2v, Paris, France, 1962.
54. Davidson Basil, The Lost Cities of Africa, Little, Brown, Boston, USA , 1970.
55. Dupuis-yakouba, Industries et principales professions des Habitants de la région de Tombouctou, paris , France, 1921.
56. MONTEIL CH, Les empires de MALI, paris, France , 1968.
57. Trimingham Spencer, A History of Islam in west Africa, oxford university, London, England , 1976.